

أثر اللغة في الشؤون الاجتماعية

لحضرة صاحب المعالي محمد توفيق رفعت باشا

رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية

إذا كان صحيحا أن اللغة أثر غير قليل في شؤون الحياة الاجتماعية ، فصحيح أيضا أن لكل شأن من هذه الشؤون أثر غير قليل في اللغة . وذلك أن اللغة ما تزال تتبع طوارئ الحاجات وتحرق دواصيها ، ثم لا تنصرف عنها إلا بمغرم من الأوضاع والتسميات المستحدثة ، فإذا استدعتها بعد ذلك حاجة طارئة أجابتها من هذه الأوضاع والتسميات بما تطلبه بعد أن تكون قد طبعت على غرارها .

فحال اللغة في الشؤون الاجتماعية هي أبدا حال أخذ وعطاء : هذه الشؤون تظهر الحاجة وتدل على الضرورة ثم تقتضى من اللغة أن تمكّنها من وصيلة التعبير عنهما وتيسر لها أداة التفاهم فيهما ، واللغة تناول هذا الذى يتجدد من حاجات وضرورات فتلبسه من عندها ثوبا يساويه وتعطيه من ذخيرتها اسما يطابقه أو تعبيرا يدل عليه .

وفي القديم دليل على ذلك لا ينكر ولا يرد . فحينما كانت شؤون الجماعة مقبسة بحاجاتها القليلة ، كانت اللغة تقوم لهذه الشؤون بكفايتها من الألفاظ والتعبيرات ، وكانت تسخو لكل شأن بما يؤدى إلى المتخاطبين أغراضهم من معانى الحقيقة والمجاز . فلما استفاضت مطالب الجماعة واستجدت لها حاجات ، كان لابد أن تسعفها اللغة بما يتيسر به التفاهم على هذه المطالب والحاجات . وهنا اتسع صدر العربية للدخيل حينما وفزعت في الأحيان الكثيرة إلى أصولها تشتق منها الدوال من الأوصاف والأسماء بعد أن تطيع فيها حكم ضوابطها المقررة .

وقد صح عند الناس أن اللغة كائن حي . فهى بذلك تنتقل ، مع اختلاف الزمن والإقليم والبيئة ومع تدرج الحياة ، من ضيق إلى سعة ومن سعة إلى ضيق ، بين أطرار لا تنهى .

وتشيل لذلك نرض أن أنواعا من المنافع المادية أو المعنوية دخل بها اجتهد العقول على شأن من شؤون الحياة. فكيف يكون موقف اللغة من هذه الأنواع الطارئة ؟ إنه لا يكون شيئا غير أن يعطى كل نوع مطلبه من الألفاظ والتعابير ، وأن يمكن أهل النظر فيه وأصحاب العناية به من أسباب البيان والإيضاح . ولكن وسيلة اللغة الى ذلك انما هى وسيلة الشريك الذى لا يتفرد بالعمل . فكلمنا اقتضت الضرورة حاجة من الحاجات الاجتماعية ، مدت يدها الى اللغة بهذه الحاجة لتصنع لها من الألفاظ ثوبا على قياسها ، وكلمنا ارتفعت شؤون الاجتماع درجة فى سلم الرقى ، أو كلمنا اتسعت ثروة ونماء وازدادت بهجة وجمالا ، عادت اللغة من ذلك بالنصيب الجزيل والذكر المحمود .

على أنه لولا التعبير والبيان لما استطاعت الحضارات الإنسانية أن ترفع عن نفسها حجب الخفاء ، ولولا اللغة لتعطلت أداة التعبير ولبقيت الألسن معتقلة وراء الشفاء . فآثر اللغة فى هذه الحضارات أنها أعربت عنها ثم قامت على حفظها مقام الخارص الأمين ، وأنها قبل هذا الإعراب والحفظ مهدت لها سبيل الحياة فأبرزت عناصرها الى الوجود ثم حملتها الى العقول والأفهام ثم صحبتها حتى صارت أركانا قوية ثم أقامت هذه الأركان القوية حتى صارت بناء ضخما .

وانا لنستطيع بأقل نظر فيما حولنا أن ندرك ما للغة فى شؤون الحياة الاجتماعية كافة من أثر بعيد الغور . فلنسال أنفسنا كيف كانت حال الإنسانية تكون لو أن الناس اخترنوا فى صدورهم من أول الأمر هذه العلوم والفنون والآداب وقواعد المسال والأخلاق والاقتصاد ثم لم يجدوا من اللغة معينا على أن يؤديها بعضهم لبعض ؟ وأهون من ذلك فى موضع السؤال أن ننظر الى معلم المدرسة وخطيب النادى ومؤلف الكتاب ومحاضر الجماعة وكتاب الصحيفة وكل من يريد أن يعرب عن شيء فى نفسه الى آخرون . فاية حيلة كان هؤلاء جميعا يستطيعون أن ينفذوا بها الى الأذهان والقلوب لولا هذه اللغة التى تجرى بها الألسنة فى الأفواه ؟ ومن وراء هذا العجز المشاهد وهذه الاستحالة الظاهرة باتى الاعتراف بفضل اللغة على الحياة وبوجوب تيسير اللغة وتغذيتها وتمييزها لتطبيق على أحوال الحياة .

لم تكن اللغة قط غاية تراد لذاتها ، ولكنها كانت وستبقى أبدا وسيلة الى التعبير الدقيق والفاهم الصحيح ، فلا يجوز أن يبقى شيء فى الدنيا بلا اسم يدل عليه بحجة أن أصحاب اللغة لم يعرفوا هذا الشيء ولم يسموه . ومن الخطأ أن نعتبر اللغة أثرا جامدا يجب المحافظة عليه كما تركه صانعوه ، فالعقل البشرى دائم الحركة والتقل والتقدم واذا تخلفت عنه اللغة فى الطريق انقطعت الصلة بينها وبينه وتعذر عليها اللحاق به وعجزت عن أن تقوم بالمهمة التى جعلت لتقوم بها وهى مهمة التعبير والتفهم .

ولست أتين وجه الصواب فيما يذهب اليه البعض من أن باب الاجتهاد في اللغة قد أقفل . فأبواب الاجتهاد لا تقفل ولا يجوز أن تقفل والا كان معنى ذلك تقييد العقل الانساني والحد من نشاطه وهذا أمر لا يقول به عاقل ولا يرضاه قوم يريدون لغتهم على أن تمشي المدنية في ميادين تقدمها ورقبها .

وإني إذ أتكلم عن الاجتهاد لا أعني التفوضى والاباحة ومحكم الجهال وتحرر الأدعياء وما الى ذلك مما يخرج اللغة عن طبيعتها ويحوطها ويقطع الصلة بين ماضيها وحاضرها ، وإنما أعني الاجتهاد المنظم في الحدود التي تحفظ كيان اللغة وأصولها . وما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الا ليؤدي هذه المهمة السامية ويبانج هذه الغاية العزيرة .

وإذا أردنا أن نخص العربية الشريفة بفضل لا يمحده أصحابها ولا ينكره عليهم المصنفون فإنا نأمن اللائمة حين نقول إنها كانت ولا تزال أسخى وأبر من غيرها ، وإن ما ينسب اليها من القصور ليس صفة لها ولا طبعاً فيها ولكنه صفة أهلها في بعض أيامهم وطبع الزمن في بعض عصوره . وحسب السباحة أن تلين هذه اللغة على كل لسان وأن تصفو في كل صدر فلا تلبث أن يطلبها الذوق فتجيبه ويستقضيها العقل حاجته فلا ترده ، وحسبها غنى أنها لا تبخل بشيء على مسترقد وأنها تلبى الى أصحابها ما يشاءون كما عادوا اليها يستولدونها كلمات وأسماء لكل جديد تستدعيه منافع الحياة .

ورجاؤنا المبحر الصدق إن شاء الله أن تنزل اللغة العربية عند القائمين على شؤون الإصلاح الاجتماعي منزلة الكرامة والتقدير ، فانهم أغنى بالمعرفة ونفوذ البصيرة من أن يفوتهم أن الناس لا يزالون يرون كل أمة في ضلالة من لغتها .

سدد الله خطى العاملين ، ورزقنا وإياهم نعمة التوفيق فيما نفعل ونعمة الإخلاص فيما نقول .

محمد توفيق رفعت